الفصل الرابع

الاتجاه الوطنى والقومى

الوطن فى شعر يس الفيل:

"الوطن فى الأدب العربى موضوع طريف لأنه ليس من أغراض الشعر العربى الثابتة المعروفة التى يتداولها الشعراء فى كل عصر، ولكنه من الموضوعات الخاصة التى تنفعل بها نفس شاعر بعينه لسبب أو لآخر فينبعث شعره يشدو بالوطن ويتغنى بأرضه وسمائه". (١)

ويس الفيل فى قصائده الوطنية الكثيرة متيم بحب وطنه كما يبدو من قصيدته "نقوش على حبة القلب" (٢):

عشقتك قبل التقاء العيون ... عيونا بها الحب لا ينضب
عشقتك نهراً وشمساً وظلاً ... يجئ بى العمر أم يذهب
عشقتك ..والعشق بعض الجنون ... إذا ما اعترانى فلا مهرب
عشقتك يا أيها المستبد ... فأين الفكاك لمن يغضب

ولعل رفاعة الطهطاوى بمقالاته وقصائده فى حب الوطن أول من كتب عن الوطنية فى العصر الحديث، كما يعد "أسبق شعراء العصر الحديث إلى التغنى بمجد مصر والدعوة إلى حبها وفدائها، ثم جاء البارودى فأسهم فى السخط على الحالة السياسية والمالية فى عصر إسماعيل وتوفيق ..وكذلك أسهم عبدالله النديم فى الثورة العرابية بخطبه ومقالاته وشعره." (٣) وجاء بعد ذلك شوقى وحافظ فكانت لهما قصائد كثيرة تفيض بالعاطفة الوطنية.

١- د.محمد مصطفى هداره : مقالات فى النقد الأدبى، دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية، الطبعة الأولى ١٩٨٣، ص ٢٠٧.
٢- المجلة العربية عدد ١٦٩ سبتمبر ١٩٩١ ص ١٦.
٣- د. أحمد محمد الحوفى : وطنية شوقى -دراسة أدبية تاريخية مقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة ١٩٧٨م، ١٤٩، ١٥٠.

التغنى بحب الوطن :

شعر يس الفيل فى الوطن هو نوع من الغزل والعشق ، فلم تكن المرأة وحدها هى موضوع الغزل عنده ، وإنما كان الوطن محوراً آخر للحب والهيام فالوطن هو حبه الأثير وحوله كانت قصائد كثيرة ؛ ولذلك ظلت هموم الوطن وقضيته من القضايا الأثيرة التى شغلته عبر مجموعاته الشعرية .

وقد التفت إلى هذه الظاهرة عند الشاعر الدكتور محمد حسن عبدالله فى الدراسة المصاحبة التى كتبها لديوان الميلاد وحكايات الخريف حيث يقول : "وإذا كانت المرأة المحبوبة محوراً أساسيا، فإنها ليست المحور الوحيد ، الوطن محور يوازى ، بل يتفوق ، وقد تكون المرأة وطنا للشاعر ، وقد استخدم هذا التعبير بالفعل ، كما قد يكون الوطن موضوعا للغزل والعشق ورغبة الفناء فيه". (١)

وحب يس الفيل لوطنه لا نسمعه ضجيجا أو هتافا ، وإنما نحسه يتسلل إلى أعماقنا ويمتلك مشاعرنا من خلال تعبير رقيق وصور موحية ، فهو حب له طابع خاص سرى فى شرايينه وامتزج بكيانه حتى صارا شيئا واحدا ، دخل مع الماء والهوى والطعام حتى اتخذ مكانه بين اللحم والعظم (٢):

يا أيها الوطن المسافر فى شرايينى
أتعرف ما تريد؟
لك زهرة الصبار
فى الكبد المولّه
مئذنه
لك ديمنه

---

١ - أنظر الدراسة المصاحبة لديوان الميلاد وحكايات الخريف د.محمد حسن عبدالله ، ص ١٣٤
٢ - أغنية بلا وطن ، ص ٩ ، ١٠.

كما أنه لا يساوم فى حبه وعشقه للوطن :

أنا لا أقايض بالذى تعطى
فحسبك أن تكون لى الوطن
وأنا بحضنك أستقيم شجيرة
تهب العصافير الندى
والظل
تمنح ما تريد لمن تريد
يا أيها الوطن المدل
أعدتنى
وأعدت شقشقة الصباح إلى فمى
أرأيتنى
أنا لا أراك
فأنت بين العظم واللحم استكنت
سكنت ما لم يسكن
أنا لا أراك
دما تقطر بالحنان إلى الوريد
لكنما نبضى يؤكد
أننى بك استعيد العمر
أولد فى رحابك من جديد [1]

وقد اختلط الشعر الوطنى عند يس الفيل بشعر الغزل فالتقت المرأة والوطن فى كثير من الصور والسياقات ، وترددت صورة المحبوبه الوطن فى كثير

١- فازت هذه القصيدة بجائزة عبدالعزيز سعود البابطين لأحسن قصيدة على مستوى الوطن العربى عام ١٩٩١.

من القصائد فيخاطبه الشاعر خطاب المحبوبه ويذوب فيه هياماً وعَذاباً يبدو في قوله [1]:

من أجلك :

أبحر

أتغرب

من أجلك :

فوق حراب اللعنة

أتقرب

من أجلك :

أمضع جذع الصبار

أبتلع الحجر المسنون

أطوى صفحات الرغبه

أحرق كل بقايا النغم المطحون

من أجلك يا قدرى :

أحـــبو،

أكـــبو،

أخـــبو،

وقد يوهمنا هذا الأسلوب الغزل أن الشاعر يخاطب امرأة . ولكن "لا يمكن أن تكون قشرة الغزل التى قد تغلف بعض الصور حائلاً أو حاجزاً عن فهم المراد فلا توجد -بعد- المرأة التى يقول لها الشاعر :

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٨٩ ، ٩٠.

من أجل أنت :

يهون القهر

يهون الجلد

يهون القيد المجنون

من أجل عيونك يا قنرى:

العمر يهون [1]

فهو فى سبيل من يحب يستعذب الشقاء ، ويتغنى بالألم ويعانى ما يعانى ولا يعبأ ، لأنه لا يرى غير وطنه ، وتلك خصوصية المحبة ، وهذه السمات من خصائص المذهب الرومانتيكى الذى يبدو فيه دائما المعاناة واللوعة والألم [2]:

من أجلك :

يسقط هذا العالم

تسقط كل دعاوى الزيف

يتعرى كل قناع مجدول من سحب الخوف

ينفجر الحيف

براكينا ،

ينفجر الحيف

يتلوى طفلى ..لا أعبأ

يتساقط لحمى ...لا أعبأ

لا أجد القوت ...ولا أعبأ

فى الظل أموت ...ولا أعبأ

من كنت ومن سوف أكون ،

١- د.عبدالله سرور : الميلاد وحكايات الخريف دراسة فى شعر يس الفيل ، ص ٩٥.

٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٩٣ ، ٩٤.

بنهار وجودى المطحون

يعصف بى خوف

ينقض على بليل البرد سعير الصيف

لا أعبأ

من أجلك:

يا أكرم طيف

يا قدر الله المكنون

يا أطهر لفظ

تعشقه من خلف القضبان عيون

ومصر التى توله الشاعر فى حبها ، وهام بها ، ووفى لها ، لم تحسن جزاءه - كما يرى- على نحو ما يكون الجزاء الحسن ، فقد رأى من هو أقل منه موهبة ومكانة يرتقى أعلى المناصب ، فهو من أجل هذا يعتب فى رفق ، ويبكى بأنين مكتوم ويحزن بقلب يتنزى ألما ، ويقطر أسى وحسرة [1]:

..وحتى أنت

حتى أنت

يا من عشتها نغماً

وسرت على دروب الشوك

بين عواصف الأيام

أناجيها

أجمل عرشها المنحوت من قدرى

أرش العطر فى لهب الهجير على محفتها

١- الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٠٧ ،١٠٨.

وأزرع أغنيات الحب فى أعتى صحاريها
وأغمس ريشتى فى القلب
أكتب ألف أغنية لعينيها
وأنسى فى زحام الشوق
أنسى أننى أحيا بقايا عالم مخدوع
وأنسى الجوع والحرمان والقسوة
وأنسى أن ما أرنو إليه سراب
وأن مدينة الأحلام
حكايا قصرك المسحور
خراب يحتفى بخراب
وأنك غير ما أملت
نهر مالح .. وضباب

وقد تعترى المحب بعض المواقف ، فيعنف من يحب ويقرعه تقريعاً جارحاً وفى حافظ إبراهيم خير مثال على ذلك ، فبرغم وطنيته الصادقة يقول [1]:

فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب

ويقول [2]:

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب

فهذا اللوم والتقريع لا ينفى الوطنية عن الشاعر المحب لوطنه .

---

١ - ديوان حافظ إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٧ ط ٣ ، ص ٢٥٦.
٢ - السابق ، ص ٣٣٩ .
٣ - ترقيعات حادة على الناى القديم ،ص ١٣٢ .

ومعظم ما لـ "يس القيل" من شعر في الوطن هو لون من الوجد الصوفي ، يقدمه ترانيم محبة وتراتيل موجدة لوطن يتوحد فيه برغم ما يعانيه من تمزق وشتات وانظر لهذا المفارقة لتدرك صحة ما أقول [٢]:

.. حتى لو أنك لم تطعمني غير الجوع
.حتى لو أنك لا تكسوني غير العرى
..حتى لو أنك لا تسقيني غير المر
..حتى لو أنك لم تمنحني نبض أمان
إلا أني أحيا فيك
وفيك أموت
وأحبك عريانا – أبـــدا –
جوعانا
لا أجد القوت

وحب الوطن عند يس القيل لا يأخذ الصورة المثالية الخالية من أية عيوب أو سلبيات كما تقدم، ولكنه صورة واقعية يرى فيه الإيجابيات فيتغنى بها ، أما السلبيات فيشير إليها لمحاولة التغيير.

ولما كان الشاعر ابن بيئة ريفية عانت طويلاً من أسباب التخلف والقهر نراه يعيش في إحساس الكادحين من أبناء الريف ، يعبر عن وجدانهم ، وينقل لنا صوراً درامية بالغة التأثير عن معاناة الفلاح وشقائه ، وعن الصراع المرير بين الفلاح والآفات التي تعتدي على زرعه .وهذه الصور نجدها في قصيدة "الميلاد وحكايات الخريف" التي استخدم فيها الأسلوب الدرامي ، كما أجاد استخدام الرمز مما منح قصيدته نضجا وبعد بها عن السطحية والتقرير [١]:

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٦٩ ،٩٧.

.. وجاءت بى ..

وكان الليل موالا خريفيا

وكان الفجر طفلا بعد لم يولد

وكان أبى

ينقب فى تراب القرية السمراء عن ثوب

وعن كسره

وعن قطره

وكان أبى

يحب الأرض

يعشقها

يقطر – صابراً – فى جوفها عمره

وكان يقول :

رغم الجرح

إن الأرض ما هانت

ولا خانت

ولا كفت عن الإنجاب

فهذه القصيدة تعد بحق قصيدة القرية المصرية ؛ لأنها تكشف عن أفراحها وأحزانها ومآسيها، من خلال تصوير حى يعبر عن تجربة صادقة عاشها الشاعر وعايشها ، وعن الفلاح الذى ظل أمدا طويلا يعانى من مظاهر الفساد والفقر والجوع والحرمان . وإليك هذا الجزء من القصيدة الذى يصور الفلاح وهو يزرع ليحصد غيره ، ويجوع ليشبع سواه [1]:

---

١ ـ الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٩٩ ، ١٠٠.

وقالت لى :

بذرنا القمح

من دمع العيون

ومن عرق الجبين

ومن دم الشريان ..رويناه

وقبل حصاده مر الجراد عليه

- ذات مساء-

أطاح بفرحة الدفء الربيعيه

أحال الحلم كابوسا يشوه حولنا الأشياء

وقالت لى :

زرعنا القطن أعواما وأعواما

ولكنا :

برغم عيوننا الصقرية النظرات

لم نجمع سوى حسره

ولم نصنع حشايا منه

لم نغزل ثيابا تستر العوره

وقالت لى :

كرهنا أن يمر العيد بالقريه

لأن العيد فى ميراثنا لحم وأثواب

وخبز يملأ الأفواه

وأحذية

وحلوى للصغار

وكل ما هو ليس بالإمكان

والشاعر فى هذه القصيدة يقدم صورة واقعية حية لنواحى النقص والفساد فى المجتمع ، وينتصر للطبقة العاملة الكادحة التى أهملت مطالبها وحقوقها ، ثم يعطينا الأمل فى الإصلاح والخلاص فيقول [1]:

ولخطو فى الطريق
على الحراب أدوس
لكن الجراد المرتمى كتلا يحاورنى
يكاد على الطريق الصعب يطوينى
وأشعر أن روح أبى تعاتبنى
وأن يديه فوق يدى تقوينى
وأخطو للخلاص بكل ما فى القلب من أمل ،
ومن إيمان
وألمح قريتى العذراء تتبعنى ،
تقبل رمحى المغروس فى قلب الدجى المسعور
تجدد عزمها
تنقض صاعقة على الظلمات

ويس الفيل عندما يتحدث عن بعض السلبيات إنما يقصد بذلك أن يزرع فى النفوس شعوراً حاداً بالنقمة على هذه السلبيات لتهب مطالبة بالتغيير ولو كان ذلك عن طريق القوة [2]:

فأمضى حاملا سيفى ومحراثى
أشق الأرض
أجعل حقلنا للمعتدى قبره
وأوفى عن أبى نذره

---

١ - السابق ، ص ١٠٢.
٢ - السابق ، ص ١٠٣.

فهذه القصيدة عبارة "عن صراع بين قوى غير متكافئة . وفيها مشاهد من القرية لا يستطيع أن يعبر عنها ويصورها إلا شاعر ريفى ذو حساسية . وفيها خوف من المستقبل وعليه . وفيها إثارة لمسائل شتى فهى قصيدة معاصرة من حيث المضمون والشكل" [1].

"والشاعر ينبه أمته إلى ضرورة الحفاظ على الأرض والاهتمام بتلك الفئة من المطحونين . والشاعر بذلك يكون عين أمته . ووعى شعبه . وضمير وطنه . إذ الشعر ليس انفعالات يقذف بها صدر يغلى فحسب . ولكنه رؤية وكشف وحدس وبصيرة واستشراف". [2]

مواقف وطنية :

عاش "يس الفيل" هموم وطنه والتحم بها . فالوطنية عنده "عطاء وخصوبة ونكران ذات . وليست مكسباً مادياً ولا جاهاً اجتماعياً" [3]. فالحب عطاء . ولما كانت الوطنية من الحب فالشاعر فى سبيل وطنه لا يكف عن العطاء : [4]

عطاء هو الحب يا من تحب ... فأين العطاء لمن يطلب

ثم يقول مخاطباً وطنه : [5]

تألق عطاء وته فى دماى ... فمنك الخلاص الذى أرقب

وجئنى بكل اجتياح السنين ... وكن فى وريدى لظى يسكب

أجئك بفيض من العشق يعلو ... على من أساءوا ومن أنتبوا

---

١ - د.عبدالله سرور : الميلاد وحكايات الخريف دراسة فى شعر يس الفيل ، ص ١١٤.
٢ - المصدر السابق ، ص ١١٤.
٣ - السابق ، ص٩٧ .
٤ - المجلة العربية ، ص١٦ .
٥ - السابق ، ص ١٦ .

ومن مقتضيات الوطنية أن يتابع الشاعر الأحداث التى تمر بها بلاده ويسجلها فى شعره ، إذ الشعر تعبير وتصوير حى لما يقع من أحدث ، فنراه فى قصيدة " أغنية للعيد للأخضر " يتحدث عن ذكرى ثورة يوليو: (١)

وشهدت يا يوليو انطلاقة أمة ... ورأيت شطآن الضياع تدمر

واليوم فى وهج الشموع ألا ترى ... أن الفداء بأرضنا يتكرر

انظر ..فهذا العيد رمز ملامح ... خفيت ..ومثلك بالملاحم يفخر

فهذه القصيدة كتبت فى يوليو ١٩٦٤ ، ومن الواضح أنها ذات نهج سياسى ،حيث كان التوجه والاهتمام والآمال المعقودة ، ومن هنا نراه يخاطب جمال عبدالناصر على أنه رمز للنهضة ، وباعث للمجد ، وقائد للتحرير وهو الثائر الذى أشعل نيران الثورة فى أرجاء الوطن العربى : (٢)

يا باعث الشرق إن الشرق مرتقب ... فناده ينطلق من نومه الأزل

أشرقت فى النيل يوما فاختفت ظلم ... ومادت الأرض تحت الشك والدجل

وقلت قولة حق أخرست أمما ... عاشت على الوهم والتضليل والجدل

وثرت ثورتك البيضاء فانخلعت ... بين الشعوب وصارت مضرب المثل

والإشادة بعبد الناصر والتغنى بأمجاده كانت نتيجة عدة أحداث أهمها تأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثى ، والوحدة العربية بين مصر وسوريا ، هذه الأحداث جعلت عبدالناصر زعيما قوميا رأت فيه الشعوب العربية الأمل والخلاص ، وهذه الفترة كانت فترة الازدهار والزهو فى حكم عبدالناصر إلى أن بدأ نجمه فى الأفول بعد هزيمة ١٩٦٧م.

---

١ ـ أغنية بلا وطن ، ص٥.

٢ ـ أغنية بلا وطن ، ص ٥٣.

ويشارك يس الفيل بقصائده فى كثيرمن المناسبات التى تقام بمناسبة أعياد الاستقلال والحرية ، فيحيى بورسعيد على كفاحها البطولى فى أكثر من قصيدة بعيد النصر على العدوان الثلاثى فنقرأ له " ذكراك عاطرة " وقصيدة " الصحوة الكبرى " وقصيدة بورسعيد " .

وتتجاوب أحاسيس شاعرنا مع الوحدة العربية بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ فيكتب قصيدة " قف يا زمان" مشيدا بهذه الوحدة وما سوف تحققه من ترابط وأخوة بين أبناء البلدين : (١)

قف يا زمان مسجلا مشيدا ... واكتب لنا فى صفحتيك نشيدا

قف يا زمان هنا اللقاء فحينا ... وانثر لنا فوق الطريق ورودا

فلقد توحدت البلاد وأصبحت ... نوراً - كسالف عهدها - ورعودا

ويربط يس الفيل بين الاتجاه الذاتى وبين أحداث وطنه فى قصيدة " بقية اللحن " ، فبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ م يتحدث إلى ولده بأسلوب هادىء بعيدا عن الخطابة مبيناً له أننا لن نستكين أو نخضع ولن نهدأ حتى نأخذ بالثأر : (٢)

ولدى :

لم تفرغ - بعد- حكايتنا

ما زلنا فى قلب النار

وسنبقى أبدا

يا ولدى

يا قبضة نور من كبدى

نتحدى نزق الإعصار

---

١ - من خارج أسوار الليل ، ص ٤٠

٢ - توقيعات حادة على الناى القديم ص ٧٠ ، ٧١.

سنظل نزمجر عبر الموج وإن عكس الريح التيار

سنظل على درب الإصرار

قوىّ تقفو خطو الإصرار

قد يسقط منا ألف صريع

قد يهوى شيخ مطعون

ورضيع لم ينطق أبداً

قد يهوى فى الدرب ربيع

لكن .....

حكايا الأوتار

ما زالت

من جوف النار

ترمى بشواظ لا يرحم

وبألف نشيد تتلظى

تتغنى

تدعو للثار .....

وفى تلك الأثناء كتب يس الفيل عدداً من القصائد الوطنية اختلفت من ناحية الشكل والأسلوب ، علت فيها النغمة الحماسية والنبرة الخطابية كقصيدة " نداء المعركة ": (١)

يا أخى فى كل شبر من بـــلادى ... دقت الساعة فـــانهض للجهـــاد

وانطلـــق بركـــان حقـــد ثـــائر ... يمسح العار .. ويجتث الأعادى

أشـــعلوا نيرانهـــا ...فلتحتـــدم ... يا سعير النار فى قلب الرمـــاد

١- أنغام لم تعزف أبدا ، ص ٩.

٢- ترنيمات حادة على الناى القديم ، ص ٩٩ .

ليس غيـــر النـــار فـــى أيامنـــا يلهب العزم فيكســـو كـــل وادى

فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، ولا بد من القضاء على المعتدى وإرجاع الحق إلى أهله ، وهذا لا يكون إلا بالاصرار والعزم القوى ، وتوجد هذه النغمة فى القصائد التالية " على وهج النار " " وإصرار للأبد " و" إرادة المصير " ،ولعل السبب فى سيطرة النغمة الحماسية والنبرة الخطابية فى هذه القصائد أنها كتبت بعد الهزيمة مباشرة ، ثم بدأت حدتها فى الخفوت رويدا رويدا ، ويتضح هذا فى قصيدة " بطاقة عيد لأخ فى الجبهة " و" شهرزاد وحكايا لا تزال " و" الليل وشلال الأمل " التى يقول فيها : (٢)

... ولو طالت بنا الأيام
... ولمئتت بنا الطرق
...ولو ألقت بنا الأشواق للمجهول
...ومزق صفونا الأرق
سنكتب بالدم المسفوك قصتنا على الجدران
ونوقد فى الظلام شموعنا أبدا
ونرفع للظلام يدا
ورب غد
بما لم نعترف أبدا
ونحن نمزق الأكفان
يعترف

وقد تغير موقف الشاعر السياسى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ م ، فحمل القيادة العسكرية المسئولية عن الهزيمة ، بعد أن " تهاوى الأمل وانحسر المد وطاح

الطموح ، ووئد التوثب ، وأفاق المصرى على هول الصدمة ، وفظاظة الكارثة "[1].

فيقول عن زعيم آمن به الشعب فخذله : [2]

دعوناه

إله العرش

ما عشنا عبدناه

وصلينا له

يا ربى

وصمناه

وأرخصنا له الأرواح

بالغالى فديناه

وسرنا نقطع الأيام

ما عشنا

لدنيـــاه

ولكنا ..فجعنا فيه .

وإذا كانت الهزيمة قد أصابت نفوس كثير من الشعراء بالإحباط ، فإن شاعرنا لم يستسلم لليأس ، ولم يهرب ، ولم يفقد الأمل فى تغيير الواقع ، وجاءت قصائده فى تلك الفترة تحمل روح التفاؤل والرغبة فى استنهاض الهمم والعزائم للكفاح والأخذ بالثأر: [3]

إن تسقط

فلتسقط أبدا

---

١ - د.عبدالله سرور الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٩٩.

٢- توقيعات حادة ، ص ٥٣.

٣- توقيعات حادة على الناى القديم ، ص ١٢١.

عبر التيار الزاحف نحو الشمس

أو تركض

فلتك إعصارا يتحدى

يتحدى الأمس

ولتنشد فوق رفات العام المهزوم

أغنية تتحدى الليل

ولتزرع غصناً من أمل

فى قلب اليأس

ولتعلم :

أن لليوم نقيض الأمس

وعندما انتصر المصريون فى أكتوبر ١٩٧٣م ، وتحقق حلمهم فى القضاء على غطرسة العدو الصهيونى ، يغنى الشاعر لبلاده فرحة النصر: (١)

وحانت لحظة الميلاد ،

حانت لحظة الميلاد كاسحة

ودوى فى حنايا الأرض نفخ الصور

وكان البعث ،

كان النشر ،

كان هناك من حول القناة نشور ،

وكان لنا على حد الصراط عبور ،

إلى سيناء

فهذه القصيدة تعبر عن مشاعر صادقة ، وتكشف عن قلب مفتون بحب الوطن ، ومن ثم تتعدد قصائده التى يتغنى فيها بانتصار وطنه ، وتلك الروح نجدها

فى قصيدة " الميلاد فى لحظات الموت " و"أغنية لعالم السلام " و"أغنية ليست لسواك " .

وكما يغنى لسيناء عند استعادتها ، فيقول فى قصيدة أغنية لسيناء : [٢]

نح ثوب الخوف عنك – يا سيناء– واختالى سلاما
وازرعى للغد فى واديك نورا واحملى الفجر وساما
ها هو النيل إلى دنياك يخطو ، رافعا للشمس هاما
فارقبيه مشرئب النفس ، عملاق الرؤى يغدو إماما
واتبعيه مؤمنا ، يمتلك الأيام فرحا وابتساما

ويكره الشاعر الحرب لما فيها من دمار للإنسان ، وقد عايش الآثار السلبية والمدمرة للحرب ، فرسم صورة صادقة لوحشية الصراع فى سبيل السيطرة على الشعوب فى قصيدته " من أجل السلام " يقول : [١]

كنت إنسانا
ولكن
مزق الإنسان قلبى
شرد الطغيان أولادى
– عراة فوق دربى –
ورمى أرضى بآلاف القنابل
وتحدانى
تحدى أن أقاتل
أيها العالم إنى
أكره النيران أن تأكل زرعى

١- توقيعات حادة على الناى القديم ، ص ١٤٤.

أكره البارود أن يحرق بيتى
أكره القسوة فى كل الصور

ولذلك فهو يدعو إلى السلام ولا يمل من تكرار هذه الدعوة ، ويواصل النضال من أجل السلام من أجل تحقيق حياة إنسانية نبيلة ، يقول مخاطباً العالم : (١)

أيها العالم إنى
عشت أيامى أغنى للبشر
وأغنى للسلام
بين أولا ى
وأبراج الحمام
غير أنى
ذات صبح مشرق
أبصرت آلاف القنابل
فوق أبراجى تدوى
هدمتها ،
أحرقت فيها الحمام
أحرقت فى الأرض أغصان السلام
أيها العالم إنى
حينما أجعل من أرضى قبوراً للطغاه
حينما أصنع من أنقاض بيتى حصن ثائر
حينما أتتح صدرى للقنابل
حينما أقذف أولادى فى قلب اللهب

---

١ - السابق ، ص ١٤٥.

لتصب النار فى عنف على وجه الظلام

فأنا أصنع ما أصنع من أجل السلام

وإيمان يس الفيل بالسلام ينبع من حبه للبشرية جميعا ، فهو يريد أن يعم أرجاء الكون ، وشاعرنا فى مطالبته بالسلام ينشد سلام القوة لا سلام المستضعفين :[1]

أيها العالم إنى

لم أعد أحيا على وهم التمنى

لم أعد أنتظر القطرة من قلب الحجر

لم أعد أنتظر الكسرة من كف اللصوص

فالسلام اليوم قوه

ودماء تتلهب ،

وسلاح

السلام اليوم بذل

وكفاح

وعندما اجتمع حكام العرب على مقاطعة مصر لأنها وقعت اتفاقية سلام مع إسرائيل ، هاله ما حدث ، وكتب قصيدة " كلمات الحب إلى وطنى" ينعى فيها موقفهم هذا ويخاطب وطنه قائلاً : [2]

فلا تجزع ، إذا احتجزت مواكبهم يد الوهن

ولا تأبه ، إذا ما الحقد جمعهم على دخن

فكم جحدوك نيلا جاد للعطشى بلا ثمن

وحضنا آمنا يأتيه من باتوا بلا سكن

---

١ - توقيعات حادة على الناى القديم ، ص ١٤٦ ، ١٤٧.

٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٢٧.

وقد يقف الشاعر موقفا معارضا لما يستجد من أحداث ، كموقفه من مشروع الخصخصة ، وبيع الدولة مرافق القطاع العام للقطاع الخاص ، فأبان عن موقفه فى قصيدة " المزاد " والعنوان فيه من المعانى ما يدل على رؤية الشاعر : [1]

نقّبى ما شئت
تحت الرمل
آلاف الكنوز
لم يعد ..ما لا يجوز
خصخصينا !!
أودعينا!
صحوة الموتى ...نشوز ...
...لا عليك الآن
من هذى الرموز
كله بيع
وأسواق النخاسه
يستوى فيها
نقاء الطهر
ما امتدت له كف التعاسه
بالنجاسه
...كل هالات القداسه
أعرضيها فى المزاد
كلليها بالسواد
أعلنى فينا الحداد

---

١ - همسات الصدى ، ص ٤٢.

طفلنا – فى المهد– مات

يا بقايا الأمنيات

هموم عربية :

وينتقل يس الفيل من الذاتى إلى العام ، وينفعل مع الأحداث العربية ويهتز لكل معانى الكفاح والثورة فى سبيل الحرية والاستقلال لكل بلد عربى مؤمناً بوحدة النضال والمصير المشترك ، فيشارك الأقطار العربية أحداثها ، ويكتب العديد من القصائد التى تعبر عن الانفعال بقضايا الأمة العربية .

فيتغنى بنضال فلسطين وانتفاضتها ضد قوى المستعمر الذى يكيل العذاب ألواناً شتى للأبرياء الذين يدافعون عن أرضهم ، وفى قصيدة " الزحف على حد المستحيل " يعيش بوجدانه هذه التجربة الحية ويأتى بصور تظهر بشاعة الاستعمار : [1]

شاخت الغربان

وانقضت على الغدر البلابل

أحرق الغيظ السلاسل

والعصافير استمانت

لم تخف عصف القنابل

ربما يسأل سائل

كيف ؟

من أين؟

لماذا ؟

ومتى ؟

---

١ - الزحف على حد المستحيل ، ص ٦٤ ،٦٥ .

كانت على الأرض العصافير تقاتل

لسألوا القضبان

كيف امتصت العمر المناضل

اسألوا الأرض التى كم اتخمت بالدم

والزرع المضرج

لسألوا حد المناجل

فالعصافير فى هذه القصيدة رمز لأطفال فلسطين ، وكأنهم تحولوا إلى طير أبابيل ترجم رأس العدو وتفل قواه ، ويستدعى الشاعر شخصية أبرهة ليصور من خلالها طغيان الاستعمار ، ويومئ عن طريق الشخصية المستدعاة نهاية هذا الطغيان : (١)

يا عصافير مثاره

جمعوا الآلام

صبوها لهبا فى المراجل

لم يعد لأبرهة يبرم أمرا

الأبابيل التى انقضت

ومدت ألف منقار إليه

لأذهلته

وأطارت عالما كم عاش ينمو فى يديه

وقد نالت فلسطين اهتماماً كبيراً من الشعراء فى العصر الحديث لخطورة قضيتها وأهميتها ، ونتج عن اهتمام شاعرنا بهذه القضية عدد من القصائد شارك بها هذا الشعب العربى أشجانه ومآسيه ، وقد شاعت فى هذه القصائد روح

١- الزحف على حد المستحيل ، ص ٦٥.

النضال والثورة كقصيدة " الكلمة واللهب المسعور " و" مرثية إنسان لم يمت " و" الأطفال والحجارة " .

ولا يغيب بصر الشاعر عن البلاد العربية الأخرى ، فنراه يستنهض همم العراقيين على نظام الحكم الفاسد : (١)

قلم الخضوع أحبتي – هيا انزعوا نورى السعيد وألبسوه قيودا
وتسموا ريح السلام بأرضكم فلقد أقمنا ركنه المنشودا

وعندما تقوم الثورة العراقية عام ١٩٥٨ م يسترجع بس الفيل تاريخ العرب فى العصر الحديث أيام الحرب العالمية الأولى حينما تحالف الشريف حسين مع الانجليز ، ومنحوا ابنه فيصلا عرش سوريا ، فلما أخرجته فرنسا منحه الانجليز عرش العراق : (٢)

هبت تحاسب من أباح دماءها ومشى بها بين الكؤوس معربدا
أوت بحلف زينوه بفيصل فاندك صرح للغواية شيدا
أو ما أرى هذا الحسين نهاية حلت بملك فى العراق تبددا ؟
أو ما أرى عبد الإله وظله أو ما رأى نورى وكيف تصيدا

وعندما اعتدت تركيا التى كانت تساندها انجلترا وفرنسا وأمريكا على سوريا عام ١٩٥٧ ، يخاطب الشعب السورى قائلاً : (٣)

قل لهم إنى أنا العملاق فى سوريا أقوم
قد نفضت النوم عن عينى ومزقت الغيوم
إننى الجبار أحميها هضابا أو نخوم

---

١ - من خارج أسوار الليل ، ص ٤٠.
٢ - السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦.
٣ - من خارج أسوار الليل ، ص ٦٠.

كل من يبغى هلاكى سوف أسقيه السموم

فهو متابع لأحداث وطنه العربى فى مواجهته وتحديه للاستعمار ويعد وجوده فى أى مكان من الوطن كلا لا يتجزأ وتلزم مجابهته.

ثم يتابع باهتمام قضايا وطنه بعيدا عن حركات التحرر، فيهتم بقيام اتحاد الإمارات العربية ويحيى هذا العمل ومن قام به : [1]

حلم وطال ... ألا ما كان أطيبه ... لما تحقق بالشيخ الذى صمدا

وأمنيات كضرب المستحيل غدت ... طوع البنان لشعب هب فاتحدا

ودوحة من رياض الخلد تحرسها ... عين السماء وترعى غرسها أبدا

ويكتب بمناسبة استقلال قطر وقبولها عضواً بالجامعة العربية قصيدة " قطر بين الوحدة والاستقلال " .

ويس الفيل يقف من الظلم والاعتداء على الغير موقف الرفض والاستنكار فيرفض ظلم الإنسان لأخية الإنسان فى أى زمان ومكان وعندما يكون الاعتداء من دوله عربية شقيقة على دولة عربية أخرى فإنه يكون أشد وأقسى .

فعندما اجتاح الجيش العراقى فى الثانى من شهر أغسطس عام ١٩٩٠م دولة الكويت يقف فى وجه الغدر ويقول : [2]

ما أسوأ الجار إن جارت يداه على ... حق الجوار ولم يردعه إيمان

ولم يدع حرمة إلا لطاح بها ... كأنما هو فوق الأرض شيطان

واجتث -غدرا- بقايا الحب فى زمن ... لم يبق فيه لهذا الحب سلطان

---

١ - حصاد الأمل ، ص ٣٩.

٢ - الابحار على سفن اليقين ، ص ٢٦.

ثم يحزن للأخوة العربية التى تشتتت ، وللوطن العربى الذى تشرذم : [1]

آه على أخـــوة آه علـــى وطـــن مد القيود له فى الليـــل ســـجان

ويشير إلى الصراع العربى العربى ويستنكر ما يحدث بين الأشقاء من اقتتال ، ولعل استخدامه لشخصية شهريار أحد أبطال قصة ألف ليلة وليلة الذى اشتهر بسفك الدماء ما يعبر عن رؤية يس الفيل لأحد الحكام العرب الذى لا يمل سفك الدماء : [2]

ويا شهريار
هو الشبق المستبد ازدهاك
أم الحقد ،
- لم يبرأ الجرح منه -
أم الانتحار ؟
تعيد المشانق للأبرياء
على الأرض يهدر سيل الدماء

ومع تقدم الشاعر فى العمر ، تزداد رؤيته السياسية نضوجا ، ووعيه شمولاً فيرى أن الدول الاستعمارية تلجأ إلى إسكات العرب بالوعود والاتفاقيات ، وما أكثر ما وعدوا وأخلفوا .

ويسوق رؤيته هذه فى قصيدة " كبرياء الحرمان " عندما وقعت اتفاقية غزة أريحا بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية بالقاهرة ، فيقول محذراً الفلسطينين من التوقيع على هذه الاتفاقية : [3]

---

١ - السابق ، ص ٢٧.
٢ - أغنية بلا وطن ، ص٧٨ .
٣ - على صدأ الذكريات ، ص ٢١.

يا عابر السبيل

تحسس الطريق

لا تغامر

إياك أن تقامر

أو تسف المعابر

فما تراه.....

إن يكن سراب

يقود للعذاب

أو كانت البوادى

بداية البدايه

فى رحلة العناد

فقد تعود مكرها

إلى عنائك القديم

متشحا بألف كبرياء

فأنت لم تزل

وما تزال وجبة

أو نصف وجبة

فى كل عام

خير من الطعام

ألف مرة

على موائد اللئام.

ثم يهيب الشاعر بالعرب ألا ينقادوا لدول الغرب ، ولا ينخدعوا بأمانيهم الكاذبة ، ولا ينساقوا وراء وعودهم الخادعة ، وكأن الخلاص بأيديهم وحدهم ، فيشير إلى الواقع المرير الذى يحسه والذى يود تغييره بما يملكه من قوة الكلمة : [1]

سلال للبيض نودعها مفارخنا
وفيها بيضة الثعبان
رؤانا لم تميز -- بعد--
بين العدو فى التيه المحنط
والتردى فى مدى القرصان
ويا زمنا ... أضل بصائرا ؟
أعمى عيونا ، لم تزل تبكى على ما كان
متى تصحو ؟ وتفتح هذه الأجفان ؟
متى تجتاز فى زمن الغياب غيابنا ؟
ومتى تغادر بالذين استنزفوك مراثئ الهزيان .

هموم إسلامية :

تخطت رؤية يس الفيل الشعورية حدود الوطن العربى إلى مشارف الوطن الإنسانى الرحب ، متضامناً مع الأقلية المسلمة فى سراييفو ، ناعياً على الغرب الجائر ويوغوسلافيا الباغية هذا العدوان المسلح ، كما يتحسر على حال الأمة الإسلامية وتفرقها وتشتتها ، ويلومها على استكانتها وتخاذلها عن نصرة الشعوب المسلمة ، وينعى على المسلمين إقبالهم على اللهو وتفككهم ، ويرجع أسباب ذلك إلى بعدهم عن الدين وعدم تأسيهم بالرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول: [2]

---

١ - الإبحار على سفن اليقين ، ص ٦٣.
٢ - الأمل مطر الفصول الأربعة ، ص ١.

تكاد منـك جـراح القلـب تلتهـب ... يا أمة فـي مـداها أورق العطـب
إلى متى أنت فى لهـو وفـى سـفه ... والموت منك بحد السيف يقتـرب ؟
أوصالك الآن حيرى لـيس تمنعهـا ... عن السـقوط حشـود للعـدا تثـب
أأنت أنت... وفى الصومال مذبحـة ... لم ينج من بطشـها رأس ولا ذنـب
أواه يا سـراييفو... والأسـى كتـل ... والحقد نار علـى كفيـك تنسـكب
مجازر الأمس عادت مـن لنـا بيـد ... ترد عنـا هوانـاً .. حولنـا يثـب
ومن يجير سراييفوا .. وقد سـقطت ... فى القاع منا ...وأخفت نجمها سحب

وهكذا نرى أن الشعر الوطنى عند يس الفيل قد واكب الاتجاهات الوطنية فى عصره ، حيث عاش الأحداث التى مرت بها البلاد وانفعل بقضايا التحرر فى وطنه الصغير مصر وفى وطنه الكبير وأمته الإسلامية ، ولم يكن الشعر الوطنى عنده تسجيلاً تاريخياً فحسب ، وإنما نحس فيه بصدق التجربة وحرارة الانفعال وقد اتضح أيضاً أن شعره فى هذا الغرض التقت فيه النزعتان الرومانتيكية والواقعية بصورة واضحة . فنجد الأولى فى تغنيه للوطن وحبه له ورؤيته له فى صورة مثالية ، ونجد الثانية فيما ذكره عن سلبيات مجتمعه ، وما ذكره عن الفلاح ومعاناته ، ولم يمنعه حبه لوطنه أن يشير إلى المثالب والعيوب.

وشعر يس الفيل فى الوطن تفاوت من حيث المباشرة والرمز ، فهناك قصائد توجه فيها الخطاب مباشرة إلى الوطن ، وقصائد ، أخرى امتزجت صورة الوطن بصورة المرأة.

وقد امتزج عنده كذلك الذاتى بالعام ، فرابط بين همومه الخاصة وبين هموم الوطن ولم ينكفئ على ذاته يتغنى بآلامه وآماله بعيدا عن قضايا الوطن فكان الشعر الوطنى محورا بارزا فى قصائده كما رأينا ، بل هو أهم المحاور التى دار حولها شعره على الإطلاق .